اسم الدرس : تفسير سورة الجمعة

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، بإذن الله عز وجل معنا اليوم وقفات مع سورة من سور الجزء الثامن والعشرين. في المرة الماضية تكلمنا عن وقفات من (سورة الصف)، واليوم بإذن الله عز وجل سنتكلم عن وقفات مع (سورة الجمعة).

هذه السورة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يخصها أحيانًا أو كثيرًا بالقراءة في صلاة الجمعة، كان أحيانًا صلى الله عليه وسلم يقرأ في الركعة الأولى من صلاة الجمعة سورة الجمعة، وكان أحيانًا يقرأ الأعلى والغاشية –صلى الله عليه وسلم–.

إذًا هذه السورة كانت مما يتكرر على مسامع الصحابة رضوان الله عليهم، وهناك الكثير من السور التي كان يتم تكرارها على مسامع الصحابة رضوان الله عليهم، وكانوا يسمعونها من النبي صلى الله عليه وسلم كسورة ق على المنبر، أو سورتي الأعلى والغاشية، أو ق والقمر في الأعياد، أو سورتي الجمعة والمنافقون كما في صلاة الجمعة، أو سورتي السجدة والإنسان كما في صلاة فجر الجمعة، فغالب هذه السور لها معاني مهمة، وتحتاج أن تتكرر هذه المعاني على قلب الإنسان وعلى سمع الإنسان.

أيضًا من السور التي يستحب للإنسان قراءتها كثيرًا كسورة الكهف –على خلاف بين أهل العلم في الحديث– كل يوم جمعة أو غيرها من السور كالمعوذات أو آية الكرسي قبل النوم، فيها معانٍ ينبغي أن يكررها الإنسان على قلبه وعلى سمعه.

تعالوا اليوم نعيش مع وقفات من (سورة الجمعة).

سورة الجمعة جاءت بعد سورة الصف، وقد حاولتُ أن أبحث عن المطلوب منا: هل هو الصف أم التجمع؟ **فما هي الحالة الأعلى: حالة الصف أم حالة التجمع؟**

حالة الصف هي الحالة الأعلى: أن يقف الناس صفًا كأنهم بنيان مرصوص، لا يتركون فُرجة، هذه هي الحالة الأعلى.

ما معنى الصف والتجمع؟ هل هي كقوله سبحانه وتعالى: {فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ}[ص: 73] ؟ فبعض المفسرين قال: أن كل الملائكة سجدوا، بمعنى أنه لم يتخلف أحد، وفي نفس الوقت سجدوا بمعنى أنهم سجدوا كلهم في نفس الوقت، فلم يتخلف أحد عن السجود، ولكن لم يسجدوا تباعًا بل سجدوا مجتمعين في نفس الوقت.

هل المقصود من سورة الجمعة بعد سورة الصف: أننا نقف صفًا واحدًا، ثم نفعل الأفعال سويًا، لا يتقدم أحد ولا يتأخر أحد عن الأفعال، كما نكون خلف الإمام؟ أو أن المقصود أيضًا –والله أعلى وأعلم– أن سورة الصف كانت تكلمنا عن حالة القتال، في حالة المواجهة: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا}[الصف: 4] ، في هذه الحالة لا يسعنا إلا أن نصطف صفًا واحدًا، في بقية الحياة لا بد أن نجتمع

فيكون بيننا أوقات للاجتماع، كما قدر الله عز وجل وشرع لهذه الأمة صلاة الجمعة وغيرها من الصلوات كصلاة الجماعة.

إذًا هناك حياة مستمرة، وهناك سَرِيَّة تخرج من المدينة أو عمل معين؛ فأثناء العمل، أثناء السرية، أثناء هذه الأعمال لابد أن نكون صفًا، ثم إذا عدنا إلى بقية الحياة لابد أن يكون بيننا اجتماعات كما قدر الله عز وجل في صلاة الجماعة وكما قدر الله عز وجل في صلاة الجمعة.

فسورة الجمعة تعبر عن حالة –لا أقول حالة الاسترخاء– ولكن حالة عدم الحرب، وعدم الاقتتال، في بقية الحياة ينبغي أن يكون بيننا هذه الألفة وهذا التجمع، وأن نجتمع على الذكر وعلى الصلاة، فنجتمع على ذكر الله سبحانه وتعالى، كما قال ربنا سبحانه وتعالى: {فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ} [الجمعة: 9] ، وذِكر الله هنا المقصود به: العلم الموجود في الخطبة، فنجتمع على العلم ونجتمع على الصلاة. وهذا هو أحد أوجه الجمع بين سورة الجمعة وسورة الصف.

قبل البداية في الكلام عن سورة الجمعة، هناك موقف هام حدث في سورة الجمعة كان من أسباب نزول هذه السورة –أو بالأخص الجزء الأخير منها– كما كان هناك في سورة الصف حدث هام.

قلنا أن قراءة سورة الصف وكأنها –وهي بالفعل كذلك– إجابة لسؤال: **أيُّ الأعمال أحب إلى الله؟** ((لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لفعلناها))، تُغير المنظور العام عن السورة. أيضًا في سورة الجمعة هناك موقف حدث، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب الجمعة ومرت قافلة، فأغلب الموجودين في الصلاة تركوا الصلاة، وذهبوا إلى رؤية التجارة أو اللهو أو أيًّا كان كما سنذكر في آخر السورة، فهو حدث عظيم، لذلك نزلت هذه السورة لتتكلم عن هذا الحدث.

العجيب أن القرآن —وهذا من أسباب الانبهار بالقرآن– فيه قوة لمواجهة الأخطاء، **القرآن فيه قوة لتحسين الأوضاع**. فالقرآن نزل لمجرد أمنية تكلم بها بعض الصحابة، حين قالوا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لفعلناها، فتنزل سورة الصف. كذلك موقف يحدث: أنه في وقت صلاة الجمعة يخرج بعض الناس ليروا التجارة، وكان هذا في وقت غلاء الأسعار، وقت جدب، وقت شدة، وقد كانوا في قمة الاحتياج لهذه القافلة فخرجوا، هذا موقف، لكنه لا يكون عابرًا أبدًا، فينزل القرآن ليصحح الأوضاع.

فبسبب أمنية ينزل القرآن، وبسبب كلمة ينزل القرآن، مثل قول الأعراب {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا } [الحجرات: 14] مجرد كلمة يتكلم بها الأعراب ينزل القرآن ليصححها، فقد قال الله عز وجل: {قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}[الحجرات: 14]. فتخيل أن القرآن كان

يصحح كل الأوضاع، الكلمات، الأماني، المواقف، كل هذه الأشياء كان القرآن يقيم مواجهة صارمة أمامها؛ لأن جيل الصحابة -إن صح التعبير- هو نموذج الإجابة بالنسبة لنا، وهو الذي سنسير على خطاه، هو التطبيق البشري للدين، هو النموذج الذي ينبغي أن نصحح أعمالنا عليه بتعديل النبي صلى الله عليه وسلم لأفعالهم، فالنبي صلى الله عليه وسلم أسوة لنا، وتطبيق الصحابة لبقية الدين قدوة لنا، ولنا في هؤلاء السلف أسوة. لذلك كان القرآن يتعامل تعاملًا صارمًا، وكان هناك مواجهات لأي خطأ وتصحيح الأوضاع بطريقة مستمرة.

فتنزل هذه السورة لتتكلم عن هذا الموقف الذي قد نعتبره أحيانًا موقفًا عابرًا، فمن الممكن أن نلتمس بعض الأعذار لهؤلاء الناس الذين خرجوا لينشغلوا بالتجارة وتركوا الخطبة، ولاسيما أن بعض أهل العلم ذكر: أنه في هذه اللحظات لم تكن الخطبة قبل الصلاة ولكن كانت الخطبة بعد الصلاة، فقد حاول بعض أهل العلم أن يلتمس الأعذار لفعل الصحابة، وذكروا أن الخطبة كانت بعد الصلاة، ولكن بعد هذا الموقف جعل النبي صلى الله عليه وسلم الخطبة قبل الصلاة، بمعنى أنهم صلوا الجمعة، وكانوا – استحبابًا- يجلسون للاستماع للموعظة، فخرجوا لينظروا إلى التجارة أو إلى اللهو كما سنذكر بإذن الله سبحانه وتعالى.

إذًا نريد أن نقف وقفات مع سورة الجمعة، وحقيقةً هذه السورة مليئة بالأفكار القوية ومليئة بالموضوعات المهمة -وهكذا كل سور القرآن- ولكن أحيانًا يفتح الله عز وجل على من يشاء من عباده بما شاء.

فسورة الجمعة -كما قلنا- هي من السور التي كانت تتكرر على مسامع الصحابة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكررها على مسامع الصحابة في الصلاة ولاسيما أنه كان صلى الله عليه وسلم ينتقي مواطن التجمع، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يقرؤها في التجمع في صلاة الجمعة، تحديدًا في الركعة الأولى من صلاة الجمعة.

فتعالوا نقف مع هذه الوقفات بإذن الله سبحانه وتعالى.

بدأت السورة بسم الله الرحمن الرحيم {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [الجمعة: 1]

" هُوَ " أي: الملك القدوس العزيز الحكيم، فالضمير هنا ينوب عن هذه الأسماء كلها.

{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}[الجمعة: 2].

بدأت السورة بالفعل المضارع {يُسَبِّحُ}، هناك سورتين في القرآن بدأتا بالفعل المضارع {يُسَبِّحُ} هما: سورة الجمعة وسورة التغابن. أما في سورة الحديد والحشر والصف جاء فعل التسبيح بالماضي، وفي سورة الإسراء جاء المصدر {سُبْحَانَ}، وجاء المضارع في سورة الجمعة والتغابن، وجاء الأمر {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} [الأعلى: 1] في سورة الأعلى، فالتسبيح جاء بكل الصيغ: الماضي والمضارع والأمر والمصدر {سُبْحَانَ} [الإسراء: 1] في سورة الإسراء.

وجاءت هذه الصيغ بترتيب المصحف فجاء المصدر {سُبْحَانَ} أولًا، ثم الماضي في ثلاث سور: الحديد والحشر والصف، ثم المضارع في سورتين: الجمعة والتغابن يفصل بينهما سورة المنافقون، ثم في النهاية في جزء عم فعل الأمر {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}.

وقد تكلمنا عن صيغة الماضي في سورة الصف وفي سورة الحديد أيضًا قبل ذلك، أما هنا نجد صيغة المضارع.

وقد قلنا أن التسبيح له دلالات وله إشارات في بداية السور، من هذه الدلالات: أن الله عز وجل غني عن عباده، وأن لله سبحانه وتعالى ملائكة تسبح بحمده ليل نهار، فإذا تركتم مجلس الذكر في صلاة الجمعة وانشغلتم بالتجارة واللهو، فإن لله عز وجل ملائكة يسبحون باستمرار لا يتوقفون، وهنا تظهر فائدة صيغة المضارع في سورة الجمعة، فكأن هناك إشارة –والله أعلى وأعلم– إلى أن الله عز وجل غني عمن انصرف، فانصرافك عن دين الله أو عن مجلس الذكر أو عن نصرة الدين لا يؤثر في حق الله سبحانه وتعالى، ولا يضر الله سبحانه و تعالى شيئًا، فالله غنيٌ عنكم وعن العالمين، الله سبحانه وتعالى غني عن عباده، فجاء الفعل بصيغة المضارع ليدل على أن التسبيح مستمر حتى لو أعرض بعض الناس أو كثيرٌ من الناس.

في سورة التغابن يأتي فعل المضارع ليدل على استمرار التسبيح، وكأن الإنسان لا يتمنى ولا يريد أن يُغبن ولو للحظة واحدة في حياته، ولا يريد أن يخسر في حياته، ولذلك جاءت بصيغة المضارع. وقد تكلمنا في مجلس سابق عن سورة التغابن، وتكلمتُ فيه أيضًا عن صيغة المضارع بالتسبيح.

{يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}[الجمعة: 1]:

{مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} تدل على العموم والشمول، فالله غني عن عباده لا يحتاج إلى تسبيح أحد، ولكن الناس هم الذين يحتاجون إلى ثواب هذا التسبيح.

{الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}[الجمعة: 1]: هذه من الآيات القليلة في القرآن التي يوجد فيها تتابع لأسماء الله سبحانه وتعالى، مثل أواخر سورة الحشر وأول سورة الحديد. فالله سبحانه يقول: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ}[الحديد: 3] في سورة الحديد، وآخر سورة الحشر فيها أيضًا مجموعة من أسماء الله المتتالية.

من الآيات القليلة في القرآن التي فيها تتابع لأسماء الله {الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} سبحانه وتعالى، فهذه البداية القوية بذكر أربعة أسماء من أسماء الله سبحانه وتعالى بالإضافة للاسم العلم (الله) في قوله تعالى {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} جعلت بعض المفسرين يحاول الربط بين كل اسم وبين المواطن في السورة.

فبعضهم قال: أن اسم الله (الْمَلِكِ) يتناسب مع أن الله عز وجل هو الذي يعطي الملك لمن يشاء، فاستبدل بني إسرائيل، واسم الله (الْقُدُّوسِ) يتناسب مع أن الله عز وجل هو المنزه عن كل نقص، فلا يحتاج إلى تسبيحكم، فهنا إشارة إلى أن الله غني عن انصرافكم لما انصرفتم في صلاة الجمعة، فالله عز وجل غني عنكم، واسم الله (الْعَزِيزِ و الْحَكِيمِ): حاول المفسرون أن يربطوها بأن فضل الله عز وجل يؤتيه من يشاء، وباصطفاء الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم وبغير ذلك.

الشاهد أن هناك محاولات لربط كل اسم من الأسماء الموجودة في المقدمة بالموضوعات الموجودة في السورة.

فالله سبحانه وتعالى هو (الْمَلِكِ): الذي يملك كل شيء سبحانه وتعالى.

(الْقُدُّوسِ): المنزه عن كل نقص. والإنسان مطالب أن ينزه الله سبحانه وتعالى عن كل نقص كما قالت الملائكة {وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ} [البقرة: 30]، قيل: {وَنُقَدِّسُ لَكَ} بمعنى: نقدسك أي ننزهك يا رب عن كل نقص، أو نقدس لك أي نطهر أنفسنا لك، فالنفس مليئة بالأمراض كما ذكرنا في سورة المعارج، والإنسان لابد أن يقوم بتزكية النفس كما سيأتي معنا: {يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}، فالقدوس فيها إشارة إلى التزكية المطلوبة من الإنسان.

(الْعَزِيزِ): الذي لا يُغالَب ولا يُنازَع سبحانه تعالى.

(الْحَكِيمِ): كل أفعاله وكل أوامره سبحانه وتعالى لها حكمة.

(هُوَ): من هو؟ {الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}

فمن تمام ملكه سبحانه وتعالى وعزته وحكمته –من تمام هذه الصفات– أنه بعث في الأميين رسولًا.

{هُوَ الَّذِي بَعَثَ}: البعث فيه إحياء بعد أن كانوا موتى، فيه إيقاظ بعد أن كانوا نيامًا.

{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا}

(فِي) تفيد الاستغراق، والتدخل، والتغلغل، فالنبي صلى الله عليه و سلم دعوته تغلغلت وانتشرت بين العرب.

{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ}

(الْأُمِّيِّينَ): هم العرب، وكانوا يُسمَوّن بالأميين قيل: لأنهم لم يكونوا أهل كتاب، فلم يكن لديهم كتاب، فكان هناك أهل كتاب وهم اليهود والنصارى، وكان هناك الأميون وهم العرب، ولم يكن لديهم كتاب؛ لذلك كانوا يسمون بالأميين، فجاءهم النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب، فأصبح لهم كتاب. وكان اليهود والنصارى يستطيلون –أي يتطاولون– على العرب ويقولون لهم: نحن لدينا كتاب من السماء، لكن أنتم ليس لديكم كتاب، فكان العرب يعظّمون اليهود والنصارى، وينظرون لهم نظرة تعظيم؛ لأنهم ليس لديهم كتاب. فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم من العرب حسدهم اليهود؛ لأنهم كانوا متوقعين أن النبي سيكون منهم، فهم أهل الكتابة، هم أهل الكتاب، وهم الذين يحسنون الكتابة، منهم الأحبار والرهبان، فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم من أُمة الأميين، رفض اليهود ذلك، وتعنتوا، وحسدوا العرب، وتكبروا، وأعرضوا عن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم.

(هُوَ): المِلك بعزته وبحكمته سبحانه وتعالى اصطفى العرب، كأن العرب لديهم صفات تصلح لأن يكونوا حَمَلة الرسالة الخَاتمَة. وقد حاول بعض كُتّاب التاريخ أن يبحثوا عن الصفات التي كانت موجودة في العرب جعلتهم أهل لاصطفاء الله عز وجل، وأن تكون الرسالة الخاتمة باللغة العربية، سواء بمحاولة فهم اللغة العربية أو طبائع العرب التي فيها أَنَفة وعِزة وحَمية، وأيضًا فيها شجاعة ومروءة؛ فهذه الصفات وغيرها جعلت بعض المؤرخين يقولون أن هذه الصفات هي سبب اصطفاء الله عز وجل لهم.

وأن الذي يحمل الرسالة لابد أن تكون فيه هذه الصفات، فهناك صفات أخلاقية معينة ينبغي لحامل الرسالة أن يتحلى بها، وأن الذي يحمل هذه الصفات و يجمع معها العلم –أي يضيف إلى هذه الأخلاق العلم– يكون أهلًا لحمل الرسالة.

كان العرب يشتهرون بالمروءة والشجاعة والحلم والكرم... أيضًا مع قيمة اللغة العربية، فنجد أن الله عز وجل يصطفي العرب لتنزل عليهم الرسالة الخاتمة وتكون بلُغتهم، هذا أمر يجعل الإنسان يُعظم لغة العرب.

الآن من يريد أن يُظهر أنه إنسان متحضر، متقدم ذكي، تجده يتكلم باللغة الإنجليزية، والذي لا يستطيع أن ينطق الإنجليزية بشكل جيد –غير متمكن من اللكنة الخاصة باللغة الإنجليزية– الناس تتعامل معه على أنه إنسان متخلف، لأن حروف اللغة العربية أصلًا فيها قوة، ونطق اللغة العربية يختلف عن نطق الحروف الإنجليزية وأيضًا الفرنسية، فغالبًا من يتعود لسانه على اللغة العربية فترة طويلة، حينما يتكلم باللغة الإنجليزية ولاسيما لو لم يعاشر الأجانب ويكتسب منهم اللغة مباشرةً يكون نطقه للغة الإنجليزية غير دقيق، وهذا أمر طبيعي ،كما يحدث لمتكلمي اللغة الإنجليزية الأجانب عندما يتكلمون باللغة العربية، فيتكلم (عربي مكسر) وهذا أمر عادي، فبالتالي العربي يتكلم (إنجليزي مكسر)،أي أن هذا لا يدل على تخلف ولا يدل على أي شيء.

نعم، لأنهم تقدموا ووضعوا كثيرًا من العلوم باللغة الإنجليزية فأصبح يتحتم –وهذا قاله كثير من أهل العلم المعاصرين– أصبح يتحتم فعلًا على طائفة من العرب من أهل الإيمان أن يُتقنوا اللغة الإنجليزية، أصبح يتوجب عليهم ذلك لاستمرار الصراع بين الحق و الباطل، بل هناك كتبٌ أُلفت باللغة الإنجليزية قد لا تجد مثلها في اللغة العربية، فأصبح يتحتم على طائفة من المسلمين أن تتقن هذه اللغة، لكن لكي لا يكون الفهم متطرفًا –أي في صف أحد الطرفين– أن إنسان لا يتقن اللغة الإنجليزية، هذا ليس عيبًا فيه.

((الإشكالية أن يوجد إنسان لا يتقن لغة القرآن))

الإشكالية أن يوجد إنسان لا يفقه معاني كلمات القرآن، هذه إشكالية عظيمة ولاسيما وهو عربي.

لا أتكلم عمن أسلم حديثًا و هو في الغرب أو في الشرق ولا يتقن العربية، و لكن أتكلم عن إنسان وُلد عربيًا ثم هو لا يتكلم العربية ولا يستطيع أن يفقه معاني القرآن.

ثم بالرغم من ذلك هو يبذل جهودًا جبارة في تعلم اللغة الإنجليزية أو في أمور دنيوية.

لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله يبغض كل عالم بالدنيا جاهل بالآخرة)[1].

الذي جمع بين هاتين الصفتين يُبغَض، ليس معنى الحديث أن الله يبغض كل عالم بالدنيا فقط، لا، ربنا سبحانه وتعالى يُبغض الذي يجمع بين الصفتين.

من كان عنده القدرة وعنده الأدوات وعنده استعداد أن يتعلم الدين ثم أعرض عنه وجعل كل الهمة وكل الوجهة في اتجاه الدنيا فقط، هذا يُبغضه الله سبحانه وتعالى، وهذا أمر منطقي.

{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ} [الجمعة: 2]

اصطفاهم الله عز وجل ليكونوا حَمَلة الرسالة، لكن ليس معنى أن ربنا اصطفاهم ليكونوا حملة الرسالة أنهم فقط من يحمل الرسالة، قال ربنا سبحانه وتعالى بعدها {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ} [الجمعة: 3] وسنتكلم عنها.

{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ} أي من العرب، و هو أيضًا كان صلى الله عليه و سلم أميًّا، كان لا يقرأ ولا يكتب صلى الله عليه و سلم، وفي هذا تشريف له صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله عز وجل هو الذي علمه، البشر يتعلمون من بعضهم البعض، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم علمه الله سبحانه وتعالى، فكل محاولات إثبات أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ ويكتب لكي ننفي عنه الأمية ليست أمرًا صحيحًا، فهذا ليس نقصًا في حق النبي صلى الله عليه وسلم.

{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ}

ما هي وظائف النبي صلى الله عليه وسلم؟

تكلمنا قبل ذلك عن وظائف الداعية في سورة نوح ومسألة التوصيف الوظيفي.

هنا أيضًا بصورة واضحة {يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}

إنسان يعمل في الدعوة، يدعي أنه من ورثة الأنبياء من العلماء، يريد أن ينصر الدين ثم هو لا يتلو الآيات، ولا يُزكي الناس، ولا يعلمهم الكتاب والحكمة، ما هي وظيفته إذًا؟!!

[1]- [عن أبي هريرة:] إنَّ اللَّهَ يبغضُ كلَّ جعظَريٍّ جوّاظٍ سخّابٍ في الأسواق، جيفةٍ باللَّيلِ، حمارٍ بالنَّهارِ، عالمٍ بالدُّنيا، جاهلٍ بالآخرَةِ. الذهبي (٧٤٨ هـ)، المهذب ٤٢٠١/٨ • إسناده جيد /الألباني (١٤٢٠ هـ)، صحيح الجامع ١٨٧٩ • صحيح

فمن وظائف الأنبياء (يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ) –أن يعلم الناس كلام الله سبحانه وتعالى، يبين ويوضح للناس كلام الله سبحانه وتعالى، إذًا هو سُميَ رسولًا لأنه جاء برسالة، فإذا ترك الرسالة لم يصبح رسولًا.

فكذلك الداعية لأنه يقدم هذه الدعوة التي جاءته من النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا ترك هذه الدعوة لا يصبح داعية، هو تخلى عن وظيفته؛ فأول وظيفة له أن يبين للناس مراد الله (يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ) الناس تسمع القرآن، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن من فِقه الرجل أن يُقَصر الخطبة) [2]، يقول كلامًا قليلًا ثم يطيل الصلاة –في صلاة الجمعة– فبالتالي يرتبط الناس بأكبر كم من القرآن وبأقل كم من كلام البشر وهذا من فقه الرجل، كذلك مِن فقه الأمة أن تصل إلى هذه المرحلة، الناس لا يحتاجون إلى كلام كثير لكن يحتاجون إلى سماع الوحي، حاليًا هناك عُجمة وهناك بُعد عن لغة الوحي؛ فبالتالي أصبحنا نحتاج إلى كلام وشرح كثير (يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ)

ماذا تفعل الآيات في الناس؟! الآيات تفعل شيئين في الناس:

أولًا: التزكية.

ثانيًا: التعليم.

{وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ} هذا نتاج تلاوة الآيات، وهنا دلالة أن الآيات تليت بطريقة صحيحة، وأن الناس انتفعوا من الآيات بطريقة صحيحة، أن الناس يحدث لهم التزكية والتعلم، والتزكية قبل التعلم، فالعلم أحيانًا إذا جاء على قلب قاسٍ ليس مُزكىً يتحول أحيانًا إلى سلاح لهدم الناس وهدم نفسه، فجاءت التزكية قبل العلم {وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}

التزكية فيها معنيان في اللغة: النقاء والنمو، الطهارة والنمو... الزكاة: أنك تطهر مالك من المال الخبيث؛ فبالتالي هذه الطهارة تؤدي إلى نمو المال، تزكية النفس: أن تصرف عن نفسك الأمراض الخبيثة ثم تقوم بتنمية النفس، النفس تنمو وتربو، {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا} [الشمس: 9] أي: صرف عنها الأمراض ثم جعل هذه النفس تنمو في الحق، إذًا التزكية والزكاة فيها معنيان في اللغة، المعنى الأول: النقاء والطهارة، والمعنى الثاني: النهوض، النمو... فيزكيهم: أي يصرف عنهم أخلاق الجاهلية، وأفكار الجاهلية، وعادات الجاهلية، وتقاليد الجاهلية؛ إذًا أول محور من التغير بالقرآن أن يترك الإنسان شيئًا، يتطهر من شيء فيه

[2]- [عن عبدالله بن مسعود:] أنَّ قِصرَ الخطبةِ وطولَ الصَّلاةِ مئنَّةٌ من فقهِ الرَّجلِ فأطيلوا الصَّلاةَ واقصروا الخطبةَ فإنَّ منَ البيانِ سحرًا وإنَّهُ سيأتي بعدكم قومٌ يطيلونَ الخطبَ ويقصُرونَ الصَّلاةَ. الهيثمي (٨٠٧ هـ)، مجمع الزوائد ١٩٣/٢ • [فيه] قيس بن الربيع وثقه شعبة والثوري وضعفه الناس

دنس، فيه نجاسة، الإنسان يبتعد عنها، نجاسة معنوية فكرية يتخلص منها الإنسان؛ هذه من أثار تلاوة القرآن، الذي يتلو القرآن ولا يريد أن يترك الأفكار السابقة لم ينتفع الانتفاع الحقيقي بالقرآن، قال ربنا سبحانه وتعالى {فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ} [البقرة: 256] هذا هو التطهر، {وَيُؤْمِن بِاللَّهِ} هذا هو النمو، {فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ} هذه هي التزكية، الاثنان معًا (يَكْفُرْ و يُؤْمِن) أن يتخلص ثم يتزكى، التي يسمونها (التخلية والتحلية)، الإنسان يتخلى عن أشياء ثم يتحلى بأشياء؛ فإذًا التزكية أن يتخلص الإنسان من أفكار الجاهلية، من عادات الجاهلية، من تقاليد الجاهلية وينظر إليها على أنها أشياء يجب أن يتخلص منها، هي أشبه بالدنس، أن يريد الإنسان التخلص منها، هي أشبه بالرجز، من أول ما نزل {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} [المدثر: 5] هناك هجر.. هناك بُغض لهذه الأشياء، {وَيُزَكِّيهِمْ}... ثم بعد ذلك إذا تخلص الإنسان من العادات والأفكار وأصبح له رؤية جديدة من خلال القرآن وتحلى بهذه النظرة الجديدة، إذًا ما هي التفصيلات المطلوبة مني؟؟ يتعلم الكتاب والحكمة، عامل التزكية قبل العلم يجعل العلم يقع موقعه في قلب الإنسان وفي عقل الإنسان {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} قيل الكتاب والحكمة: أي الأوامر الشرعية الموجودة في القرآن والسنة، فكثير من أهل العلم قال: الحكمة هي السنة، وقيل الحكمة: كيفية تطبيق مراد الله سبحانه وتعالى بحكمة منه سبحانه وتعالى وبتوفيق منه سبحانه وتعالى، فالحكمة أن أطبق هذه الأشياء بحكمة والحكمة: وضع الشيء في موضعه، وكما قلت كثير من أهل العلم قال: الحكمة هنا (السنة)، فالإنسان قبل أن يتعلم التفصيلات الجزئية الموجودة في الدين يحتاج إلى تغير، إلى تغيير في رؤيته للحياة.

وهناك درس كان بعنوان: القرآن والتغيير؛ يتناول محاور التغيير التي قام بها القرآن في حياة الصحابة.

{وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ} [الجمعة: 2] انظر هنا يعرفك على التزكية، وكيف نظر الصحابة إلى عادات الجاهلية بعد أن تركوها {وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}، لما جاء القرآن أصبح الضلال مبينًا أي واضحًا، قبل القرآن كان الضلال ملتبسًا على الناس، أشبه بقوله سبحانه وتعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا} [الجن: 4]، الجن لما استمعوا إلى القرآن أدركوا مدى سفاهة إبليس، قبل أن يسمعوا القرآن كانوا ينظرون إلى كلام إبليس على أنه كلام مثقف، كلام تنويري،

كلام رائع وكان هو قائدهم، لكن بعد أن استمعوا إلى الحقائق القرآنية أدركوا مدى سفاهة هذه الأفكار {وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}.

{وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ}[الجمعة: 3]، أحد أهم الأفكار التي في السورة قضية اللحاق، كيف نلحق بالصحابة؟ {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ}: أي أصبحوا منهم، الأميين: أي العرب، الصحابة الذين أسلموا، فربنا يقول: هناك آخرين من الصحابة.. ماذا يعني آخرين من الصحابة؟ أي منهم في الإسلام، أسلموا فأصبحوا إخوة؛ لذلك كثير من أهل العلم قالوا: آخرين أي الأعاجم، ثم جاء الإسلام وأزال الفوارق بين العرب والأعاجم، أزال هذا الفرق فقال تعالى: {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ} أي أصبحوا منهم برابطة الإسلام، بقوة الإسلام .. فالإسلام -نعم- جاء للعرب في أول الأمر، ثم أصبح الإسلام للعالمين نذيرًا، كما قال ربنا سبحانه وتعالى: {رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}[الأنبياء: 107].

{وَآخَرِينَ مِنْهُمْ} قيل هم العجم، وقيل كل الناس بعد الصحابة، وقيل التابعين، وقال كثير من أهل العلم: أهل فارس... لماذا أهل فارس تحديدًا؟ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية سأله أحد الصحابة وقال: يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من المِعْنِيّ ب{وَآخَرِينَ مِنْهُمْ}؟ فسكت النبي صلى الله عليه وسلم فسأله مرة ثانية وثالثة، فوضع النبي صلى الله عليه وسلم يده على كتف سلمان وقال: (لو كانَ الإيمانُ عِنْدَ الثُّرَيّا، -لبلغه- رِجالٌ مِن هَؤُلاءِ)[3]، يعني من أهل فارس يعني سَلْمَان، فلا يعني كون الرسالة جاءت للعرب أنه لا يوجد أعاجم سيبذلون لنصرة هذا الدين، بل على العكس هناك أعاجم فاقوا العرب لنصرة الدين؛ بل أصحاب الكتب الستة لسنة النبي صلى الله عليه وسلم كلهم من بلاد الأعاجم وليسوا من بلاد العرب.

فتخيل الحديث وهو حديث صحيح : (لو كانَ الإيمانُ عِنْدَ الثُّرَيّا) بينما أنت من الممكن أن يكون الإيمان بجانب بيتك ولا تذهب أو تستجيب، من الممكن أن يكون الدرس بجانب بيتك وتتكاسل، من الممكن أن يكون الإيمان في بلد ما وأنت تتكاسل عن السفر، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم : (لو كانَ الإيمانُ عِنْدَ الثُّرَيّا) وهذه هي رحلة إيمان سلمان الفارسي فعلًا، ظل يبحث حتى وصل... (لو كانَ الإيمانُ عِنْدَ الثُّرَيّا، -لبلغه- رِجالٌ مِن هَؤُلاءِ) ، وعلى الصعيد الآخر هناك أناس لو كان الدولار في الثريا

3- [عن أبي هريرة:] كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النبيِّ ﷺ، فَأُنْزِلَتْ عليه سُورَةُ الجُمُعَةِ: {وَآخَرِينَ منهمْ لَمّا يَلْحَقُوا بِهِمْ} قالَ: قُلْتُ: مَن هُمْ يا رَسولَ اللَّهِ؟ فَلَمْ يُراجِعْهُ حتّى سَأَلَ ثَلاثًا، وفينا سَلْمانُ الفارِسِيُّ، وضَعَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ على سَلْمانَ، ثُمَّ قالَ: لو كانَ الإيمانُ عِنْدَ الثُّرَيّا، لَنالَهُ رِجالٌ - أوْ رَجُلٌ - مِن هَؤُلاءِ. حَدَّثَنا عبدُ اللَّهِ بنُ عبدِ الوَهّابِ، حَدَّثَنا عبدُ العَزِيزِ، أخْبَرَنِي ثَوْرٌ، عن أبِي الغَيْثِ، عن أبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النبيِّ ﷺ: لَنالَهُ رِجالٌ مِن هَؤُلاءِ.
البخاري (٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري ٤٨٩٧ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٤٨٩٧) واللفظ له، ومسلم (٢٥٤٦)

يعرف كيف يصل إليه! وله في ذلك تصرف و خبرات وطرق ويعرف كيف يأخذه، ولا تسأل كيف له ذلك!!! فكذلك هناك أناس تعرف كيف تحصل على الإيمان، البعض يسأل أنا لا أعرف كيف أزيد إيماني، في حين أن البعض الآخر بفضل الله أصبح عنده ذاتية، يبحث ويتصفح على النت ويسأل، ومن يسأل لن يضل الطريق، هذه قاعدة.

{وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا}[الجمعة: 2,3]، (لَمَّا) أي الأعاجم أو التابعين أو غيرهم {لَمَّا يَلْحَقُوا} (لَمَّا): حرف نفي، أي لم يلحقوا ولكن قاربوا اللحاق بهم، تخيل! ربنا يقول هناك أناس ستقارب –هي لن تصل لنفس منزلة الصحابةن لكن يقارب أن يلحق بالصحابة، يسير على خطاهم، يسير خلفهم، هناك أناس سيسيرون على نفس الطريق ويقومون بنفس البذل –مع الفارق طبعًا فجيل الصحابة مختلف–.

{وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ}، كيف نلحق بالصحابة؟ إذًا السورة توضح في بعض الأيات كيف نلحق بالصحابة، وما هي الأفعال التي لو فعلناها ننحرف عن طريق الصحابة. وسنذكر ذلك بإذن الله عز وجل ، لأنه من الأفكار المهمة في السورة فكرة اللحاق، نريد تجميع ثلاث أو أربع أفكار نخرج بهم اليوم من الدرس، ومن الأفكار الأساسية اللحاق.

{وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[الجمعة: 3]، أي أن الله قادر وله حكمة...

ما هو إعراب كلمة (وَآخَرِينَ)؟ بعضهم قال: أي بَعَث في آخرين، أو ويُعَّلم آخرين، بمعنى: أن تعليم الدين مستمر إلى يوم القيامة؛ لذلك يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إنَّ في أصلابِ أصلابِ أصلابِ رجالٍ)[4] أي من الممكن وجود ذرية في الجيل الخامس أناس يؤمنون بالله سبحانه وتعالى! من الممكن أن يكون الجد كافر، ثم الذرية السادسة أو السابعة هي التي تُسْلِم.

هناك قصة دائمًا يحكيها "نعمان خان"[5] –المتميز في الكلام عن القرآن في أمريكا–، يحكي فيذكر موضوعًا هامًّا جدًا، يدلك على مدى اعتزازه بالإسلام، يقول أن أجداد أجداده لم يكونوا مسلمين، وهناك جد من الأجداد قرر الانتقال لبلاد الإسلام، فيقول أن خط عائلته كان: (كافر كافر كافر..)

4- [عن سهل بن سعد الساعدي:] إنَّ في أصلابِ أصلابِ أصلابِ رجالٍ من أصحابي رجالًا ونساءً يدخُلونَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ ثُمَّ قرَأَ {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} الهيثمي (٨٠٧ هـ)، مجمع الزوائد ٤١١/١٠ • إسناده جيد

5- نعمان علي خان خطيب أمريكي مسلم و مدرس للغة العربية و قد تم إنشاء معهد بينة للدراسات القرآنية و اللغة العربية على يديه، بعد أن كان محاضرًا في اللغة العربية في كلية مجتمع ناساو. وقد تم تصنيفه من قبل المركز الملكي للبحوث الإسلامية الاستراتيجية في الأردن ضمن أكثر 500 مسلم مؤثرين في العالم.

بعدها حصل –لا نقول انحراف ولكن– اهتداء في خط العائلة، وأصبح هذا الجد هو أول مَنْ وضع الإسلام في العائلة، بعدها أصبحت الذرية مسلمة! فيقول أنه يتمنى رؤية جده هذا في الجنة لِمَا كان من فضله عليهم (على العائلة)، فهو مشتاق لرؤية الشخص الذي أخذ هذا القرار، وقام بهذا البُعْد في خارطة العائلة وغيّر مسارها، يتمنى أن يقابله!

فحين يسمع في القرآن آيات {أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ} [الطور: 21] ، وأنه سيحصل لقاء عائلي جماعي في الجنة، فيتمنى تلك اللحظة التي يتعرف فيها على جده الذي أخذ هذا القرار.

أحد الإخوة عندما يذكر لي هذا المعنى –الذي ذكره نعمان خان– يقول: أنا لا أتخيل هذا الذي أخذ قرار الانتقال لبلاد الكفر ولم يحافظ على أولاده، بل بالعكس ساعد أن يضلوا، فبالتالي جاء الجيل الثالث أو الأجيال الثلاثة أصبحت ملحدة! فيقول لا أتخيل لقاء الجيل الثالث الملحد بجده هذا في النار! يراه فيقول له: {أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ} [ص: 60]، تخيل أن يتسبب إنسان في ذلك! ، وبالطبع {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ}[فاطر: 18]، لكن تخيل على البعد كما قال النبي صلى الله عليه و سلم: (فأبَواهُ يُهَوِّدانِهِ أوْ يُنَصِّرانِهِ، أوْ يُمَجِّسانِهِ) [6].

فالشاهد؛ قول ربنا سبحانه و تعالى: {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ}، هناك أجيال سوف تأتي لنصرة هذا الدين {لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ}، والسؤال: هل نحن من هذا الجيل؟ هل نحن نتمنى اللحاق بالصحابة ؟

فبالتفكير في سؤال (كيف نلحق بهم؟)، مَنْ يحتاج الإجابة صدقًا هو الذي يتمنى أن يلحق بهم! لكن الذي سيسمع إجابة كيف نلحق بهؤلاء وهو لا يريد هذا الطريق أصلًا، لا تهمه هذه الاجابة كثيرًا!

{ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ}[الجمعة: 4]، قيل: أي النبوة، وقيل: اصطفاء العرب، و قيل: اللحاق.. أن الذي سيَمُنُّ عليه الله ويلحق ويسير على نهج الصحابة فـ{ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ}.{ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}.. فلا تستبعد الأمر، فربنا فضله عظيم سبحانه وتعالى.

---

[6]- [عن أبي هريرة:] يُصَلّى على كُلّ مَوْلُودٍ مُتَوَفًّى، وإنْ كانَ لِغَيَّةٍ، مِن أجْلِ أنَّه وُلِدَ على فِطْرَةِ الإسْلامِ، يَدَّعِي أبَواهُ الإسْلامَ، أوْ أبُوهُ خاصَّةً، وإنْ كانَتْ أُمُّهُ على غيرِ الإسْلامِ، إذا اسْتَهَلَّ صارِخًا صُلِّيَ عليه، ولا يُصَلّى على مَن لا يَسْتَهِلُّ مِن أجْلِ أنَّه سِقْطٌ فإنَّ أبا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عنْه، كانَ يُحَدِّثُ، قالَ النبيُّ ﷺ: ما مِن مَوْلُودٍ إلّا يُولَدُ على الفِطْرَةِ، فأبَواهُ يُهَوِّدانِهِ أوْ يُنَصِّرانِهِ، أوْ يُمَجِّسانِهِ، كما تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعاءَ، هلْ تُحِسُّونَ فِيها مِن جَدْعاءَ، ثُمَّ يقولُ أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عنْه: {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها} [الروم: ٣٠] الآيَةَ. البخاري (٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري ١٣٥٨ • [صحيح]

كان مجرى الآيات عن مخلوقات تسبح لله ليل نهار –في صيغة المضارع–، وأن ربنا اصطفى النبي صلى الله عليه و سلم وبعثه للعرب حتى يشاركوا المخلوقات بالتسبيح حتى لا نكون نشازًا في الكون، فجاءت {يُسَبِّحُ} في صيغة المضارع، فربنا بعث رسولًا حتى نشارك المخلوقات في التسبيح.

ثم فجأة ظهر بُعد جديد في السورة بالكلام عن بني إسرائيل، {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [الجمعة: 6]، وقال بعدها: {قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا}، بعد ذلك بأكثر من آية {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ}[الجمعة: 9].

{مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا} ربنا سبحانه و تعالى يقول لنا: لا يعني كون الله اصطفاكم و بعث لكم رسولًا يتلو الآيات أن أصبح هذا الاصطفاء دائمًا، لا! من الممكن أن يتم استبدالكم كما تم استبدال بني إسرائيل من قَبْل، فالله عز و جل ليس بينه و بين أحد من خلقه نَسَبٌ، {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران: 110]، لماذا؟ {تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ} [آل عمران: 110] لأفعال معينة.. إذا طبقتم هذه الأفعال استمر الاصطفاء.. أما إذا تركتم هذه الأفعال جاء الاستبدال، {وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم} [محمد: 38]، نعوذ بالله عز وجل من ذلك.

فذكر الله عز وجل أسباب الاستبدال، ومن خلالها –بعكسها– يتضح كيف نلحق بالصحابة؛ فذكر ربنا سبحانه و تعالى موقفين في السورة:

الأول: موقف من يتعلم ثم لا يطبق.

الثاني: موقف الذي ترك مجلس التعلم.

نكرر مرة أخرى، ذكر ربنا سبحانه وتعالى في السورة موقفين سلبيين:

الأول: موقف الذي تعلم ثم لم يعمل بما تعلم! وهذا الذي سنتكلم عنه –موقف بني إسرائيل– {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا} [الجمعة: 5]

والثاني: موقف الذي ترك مجلس التعلم من الأصل {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا}[الجمعة: 11].

- إذًا هذه أسباب الاستبدال:

أن تترك المجلس، أو أن تتعلم ثم لا تعمل.

- فكيف ألحق بالصحابة؟ ببساطة أن تظل في المجلس تتعلم ثم تطبق ما تعلمت، أي أن الذي يريد أن يلحق بالصحابة يكون شعاره {سَمِعْنَا}[النور: 51]: فيسمع للعلم و{أَطَعْنَا}[النور: 51]: فينفّذ ما تعلم، هذا هو طريق الصحابة.

لكن القضية في الاستمرار، لذلك كانت {يُسَبِّحُ} في صيغة المضارع، فكثير من الناس يدخل المجلس، يدخل المسجد ويجلس في المجلس، لكن إذا رأى تجارة أو لهوًا انفض إليها! فقرار دخول المسجد من الممكن أن يكون سهلًا، لكن قرار الثبات، هذا هو الصعب! لذلك هذه من أسرار صيغة المضارع {يُسَبِّحُ} في سورة الجمعة.

إذًا الموقف السلبي الأول الذي يحذرنا ربنا منه حتى لا نُستبدَل، حتى يستمر الاصطفاء، حتى نحافظ على نعمة {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا}[الجمعة: 2]... ربنا يحذرنا من {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ}[الجمعة: 5] كما تحملتم أنتم القران حُملوا هم التوراة.

لابد إن صح التعبير بالحضارة –و إن كان هناك من يعترض على تسمية الدعوة الاسلامية بالحضارة الإسلامية والبعض يسميها الثقافة الإسلامية– لكن على كل حال أي حضارة دينية لابد أن تقوم على نَصٍّ! لابد من نص مُحكم يرجعون له، فنحن النص لدينا هو القرآن، هم نصهم كان التوراة، كان المفترض أن ينطلقوا من التوراة، ما يُقَيِّم الأعمال و يُقَيِّم الحضارة ويُقَيِّم الأشخاص هو هذا النص الثابت المحْكَم! نعم هناك متغيرات كثيرة في الحياة لكن لابد أن يكون هناك نص ثابت، فكانت التوراة لبني إسرائيل، فحُمِّلُوا التوراة ثم لم يحملوها!

ما معنى {حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا}[الجمعة: 5]؟

نحن نريد أن نعلم ماذا فعلوا حتى لا نقع في نفس خطئهم، إذًا مهم جدًا أن ندرس بني إسرائيل، لماذا؟ لأنها أمة كاملة مرت بكل المراحل؛ من مرحلة الاستضعاف لمرحلة التمكين لمرحلة الاستبدال والعياذ بالله، مرت بكل المراحل! فدراستها مهمة جدًا.

أكثر أمة ذُكرت في القرآن هي: "بني إسرائيل".

وأكثر الشخصيات من أهل الباطل التي ذكرت في القرآن: "فرعون".

وأكثر الأنبياء الذين ذكروا في القرآن: "موسى عليه السلام".

لماذا؟ لأنها أمة كاملة مرت بكل المراحل فتحتاج إلى دراسة.

الجزء الأول –كاملًا– من سورة البقرة يحكي عن بني إسرائيل، قبل الجزء الثاني الذي فيه التشريعات الخاصة بالأمة الاسلامية، لماذا؟

تحذيرًا من أفعالهم! لأننا إذا وقعنا فيما وقعوا فيه لن نستطيع أن نطبق التشريعات التي في الجزء الثاني من سورة البقرة. فدراسة ما فعل بنو إسرائيل مهمة جدًّا حتى لا نسير خلفهم فنصل إلى ما وصلوا إليه.

ولقد أخبر النبي صلى الله عليه و سلم أن هناك طائفة من المسلمين –للأسف– سوف يسيرون خلفهم ويدخلون كل جحر ضب يدخلونه (لتتَّبعُنَّ سَنَنَ من كانَ قبلَكُم شبرًا بشبرٍ، وذراعًا بذراعٍ حتّى لَو دخلوا جُحرَ ضبٍّ –دخلتموه ورائهم–)[7]

هنا في سورة الجمعة يقول الله عز وجل {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا}، قال كثير من أهل العلم –بل جمهور المفسرين–: {حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ} أي كُلِّفوا بالعمل بها، و قال بعضهم ضُمِنُوها، ما معنى ضُمنُوها؟ أي كان ضامنًا، كان كفيلًا، كان مطالبًا بأن يحافظ عليها نصًّا وعملًا.

كانوا مطالبين بأن يحافظوا على التوراة.. على كلام الله.. على النص.. لا يحرفوه.. وكذلك على التطبيق.. فلا يتركوا شيئًا! هذا معنى أنهم كانوا أهل ضمانة، ربنا ضَمَّنهم و حَمَّلهم هذه الأمانة {حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ}.

{إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ}[الأحزاب: 72] كان مجرد عرض، فعندما رفضتها السماوات والأرض والجبال {وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ}[الأحزاب: 72]..

هنا في سورة الجمعة هم تحملوها {حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ} حُمِّلُوها ولكن لم يحملوها على الوجه المطلوب! إذًا معنى آية: {حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا} أي قَبِلوا الأمانة ثم لم يؤدوها على وجهها.

ماذا يعني أن أحملك أمانة ثم أنت لا تتحملها؟ أي أني كلفتك بعمل معين وأنت وافقت وبدأت تنفذ، ولكنك أخطأت في التنفيذ، إذًا الإشكالية كانت في التنفيذ.. وبعضهم قال: كان في الفهم و التنفيذ –و هذا اختيار ابن كثير– أي أن مشكلتهم {ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا} ليس فقط لم يطبقوها، لا، بل لم يفقهوها على وجهها، بل وحرفوها! فلم يؤدوا الأمانة لا في النص ولا في التطبيق.

7- [عن أبي سعيد الخدري:] لتتَّبعُنَّ سَنَنَ من كانَ قبلَكُم شبرًا بشبرٍ، وذراعًا بذراعٍ حتّى لَو دخلوا جُحرَ ضبٍّ لسلكتموه. قالوا: يا رسولَ اللَّهِ مَن اليَهودُ والنَّصارى؟ قالَ فَمَن إذًا؟ ! الألباني (١٤٢٠ هـ)، تخريج كتاب السنة ٧٤ • إسناده صحيح
[عن أبي سعيد الخدري:] لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَن كانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا شِبْرًا وذِراعًا بذِراعٍ، حتّى لو دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ، قُلْنا: يا رَسولَ اللَّهِ، اليَهُودُ والنَّصارى؟ قالَ: فَمَنْ. البخاري (٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري ٧٣٢٠ • [صحيح]

إذًا {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ} أي كُلِّفوا بالعمل بالتوراة {ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا} أي لم يطبقوا التوراة.

لذلك النبي صلى الله عليه وسلم أنكر على أحد الصحابة حين استغرب، قال (كيف يضيع القرآن منا؟! سوف نحفظ القرآن ونُحفّظه لأبنائنا ولأبناء أبنائنا)، فتعجب النبي صلى الله عليه و سلم وقال: ها هي التوراة و الإنجيل بأيدي أصحابها لا تغني عنهم شيئًا لأنهم لم يطبقوها[8]

فقضية التطبيق هامة جدًا، ليست فقط في التبرك!

نحن كأمة الإسلام (أمة القرآن)، القرآن محفوظ بحفظ الله عز وجل {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}[الحجر: 9]، فنحن مطالبون بحفظ معاني القرآن وبتطبيق القرآن.

لذلك إذا سألنا سؤالًا.. قال الله عن بني إسرائيل {ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا} لم يحملوها على الوجه المطلوب لم يؤدوا الامانة... هل تحملنا نحن القران؟!

هل حملنا الرسالة؟! هل نحن أدينا الأمانة تجاه القرآن؟!

هل بلغنا رسالة الله عز وجل للعالمين؟!

هل طبقناها على نفوسنا؟!

هل نحن من أهل القرآن؟!

هل نحن يَصْدُق فينا قوله سبحانه وتعالى {ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا} تجاه القرآن؟!

تخيل المثل المضروب لهؤلاء: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ} [الجمعة: 5]

سمى الله عز وجل عدم التطبيق تكذيبًا؛ لأن الكلام لا يطابق الواقع، فأصبح كذبًا! حتى لو الكلام صدق لكن الواقع يُكَذِّبه، مثل قوله تعالى في أول سورة الصف {لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ}[الصف: 2]، فأصبحوا يقولون كلامًا في التوراة لا يطبقونه فأصبح تكذيبًا، أصبح واقعهم يُكذّب كلامهم، وأصبحت أفعالهم تُكذّب أقوالهم {ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا}

[8] كنَّا معَ رسولِ اللَّهِ -صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ- فشخصَ ببصرِهِ إلى السَّماءِ ثمَّ قالَ هذا أوانُ يُختلَسُ العِلمُ منَ النَّاسِ حتَّى لا يقدِروا منهُ علَى شيءٍ فقالَ زيادُ بنُ لَبيدٍ الأنصاريُّ كيفَ يُختلَسُ العِلمُ منَّا وقد قرَأنا القرآنَ فواللَّهِ لنقرأنَّهُ ولنُقرِئنَّهُ نساءَنا وأبناءَنا فقالَ ثَكِلَتكَ أمُّكَ يا زيادُ إن كُنتُ لأعدُّكَ مِن فُقَهاءِ أهلِ المدينةِ هذهِ التَّوراةُ والإنجيلُ عندَ اليَهودِ والنَّصارَى فَماذا تُغني عَنهم قالَ جُبَيرٌ فلَقيتُ عُبادةَ بنَ الصَّامتِ قلتُ ألا تسمَعُ إلى ما يقولُ أخوكَ أبو الدَّرداءِ فأخبَرتُهُ بالَّذي قالَه أبو الدَّرداءِ قالَ صدقَ أبو الدَّرداءِ إن شئتَ لأحدِّثنَّكَ بأوَّلِ علمٍ يُرفَعُ منَ النَّاسِ الخشوعُ يوشِكُ أن تدخُلَ مسجدَ جماعةٍ فلا ترَى فيهِ رجلًا خاشعًا / أبو الدرداء • الألباني (١٤٢٠ هـ)، صحيح الترمذي ٢٦٥٣ • صحيح

هل نحن تحملنا معاني القرآن وأمانة القرآن ثم سرنا بها بين الناس؟؟ {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ}[الأنعام: 122]، {وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ}[الشوري: 52]، هل أنت تحملت هذا النور ثم تحركت به بين الناس؟؟

{مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا} قال كثير من أهل المعاني من المفسرين: وتصْدق هذه الآية على من تعلَّم القرآن ولم يعمل به، وقال بعضهم وتصدق هذه الآية على من أعرض عن تعلم القرآن، أنه – والعياذ بالله– مثله كمثل الحمار يحمل أسفارًا.

فارق بين {كَمَثَلِ الْكَلْبِ}[الأعراف: 176] –والعياذ بالله– الذي ذُكر في سورة الأعراف أنه تعلم وطبق ثم انتكس وارتد، هناك مَنْ تعلّم وعرف وطبق وعلِم كيف يطبق، ثم أعرض وانسلخ والعياذ بالله! فمثله كمثل الكلب، أما هنا –في سورة الجمعة– تعلّم وعرف ولم يطبق وأصبح يتباهى بالأحمال التي على ظهره، يتباهى بالمعلومات، وأنه من الأحبار، أنه ذو وزن في العلم، ولكن في الأفعال لا تجد شيئًا.

القرآن كتاب واقعي؛ أيٌّ منا حين يبحث في المصحف ليرى القضايا التي عالجها القرآن:

- قضايا الشهوة في سورة النور
- قضايا الاقتصاد في سورة البقرة
- قضايا السياسة الموجودة في سورة النساء والمائدة
- قضايا التعامل في السوق الموجودة في سورة المطففين.. تجد القرآن كلامه واقعي، يخترق الواقع! يخاطب حتى الأماني والأفعال والأقوال فيغيرها، فالقرآن جاء ليُطبَّق، وليُصبح أمرًا واقعيًّا، ليحكم بين الناس، لا مجرد أن يكون كلامًا يُتلى وشعائرًا وفقط، جاء ليكون أمرًا واقعيًا في حياة الناس! هذا هو ((تَحَمُّل القرآن)).

إذًا تَحَمُّل معاني القرآن لتطبيقها على النفس والسعي لتطبيقها بين الناس هذا ما يحفظنا من أن نُستبدل. فاليهود من أسباب استبدالهم أنهم كانوا يتعاملون مع التوراة كما كان الحمار يتعامل مع الأسفار، والله سبحانه وتعالى قال: إن الحمار هنا يحمل {أَسْفَارًا}، لم يقل أنه كان يحمل أثقالًا بل قال أسفارًا...

فالسِّفْر: الكتاب الذي يكشف الأمور ويضيء، مثل الصبح الذي يُسفر عن الأشياء.

السفير: يُستفر لأنه يكتشف ويكشف لنا عن أشياء.

السّفرة: الممدودة المكشوفة...فالسِّفْر فيه معاني الكشف والإيضاح والتبيين.

وبعض أهل العلم قال بأن تفسير القرآن مقلوب السفر، وأن أصل كلمة أسفار من تفسير القرآن أي بيان وإيضاح معاني القرآن.

{يَحْمِلُ أَسْفَارًا} أثبت الله العلم على ظهورهم لكنه لا يؤثر؛ هم يظلون كالحمار والعياذ بالله، لأنه لم يتأثر بالذي كان يحمله على ظهره! حَمِّل القرآن -أي ضع على ظهر الحمار القرآن- وضع فتح الباري وابن كثير هل يتغير الحمار؟!

هو يَحْمل؛ فهناك أناس تحمل هذا بالفعل، ثم يتوسد القرآن، أي يجعله وسادة، وينام ولا يتغير ولا يطبق! هذا من أسباب الاستبدال. فحتى تشكروا نعمة {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ} حتى تشكروا هذه النعمة لابد أن تطبقوا هذه الآيات، وإلا يتم الاستبدال والعياذ بالله، وعندها الإنسان يشبه الحمار؛ يحمل أسفارًا وكلما ازداد معلومات ازداد إثمًا {يَحْمِلُ أَسْفَارًا}

{بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [الجمعة: 5]

إذًا قضية أن يتحول القرآن إلى مجرد مخزون معرفي، أن يتحول الدين إلى مجرد مخزون معرفي، زيادة في المعرفة وفقط، وتصبح المعرفة فقط من أجل المعرفة، ومن أجل التباهي، دون تغيير ولا تطبيق، لا في حياة الإنسان وواقعه، ولا في حياة الناس، ولذلك كان كثيرٌ من السلف يقول: إنما العلم الخشية.

العلم لابد أن يثمر، كما قال تعالى {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ} [الزمر: 9] في آخر الآية {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر: 9]

لابد من أثر للعلم! غياب آثار العلم على الشخص وعلى الناس يدل على أن هذا العلم وبالٌ على صاحبه! {بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [الجمعة: 5]

وقيل أن من معاني هذه الآية: أنهم كتموا نبوة النبي صلى الله عليه وسلم حسدًا، وأن هذه الكتب مليئة ببشارات مجيء النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنهم كتموا ذلك وأعرضوا عنه، فسماهم الله ظالمين {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}

{قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا} [الجمعة: 6]

نداء لليهود... أنتم تدّعون أنكم أصحاب علمٍ، ومنكم الأحبار والرهبان، وأنكم أبناء الله وأحباؤه...

فأول السورة اصطفاء الله للأميين، ينازع في هذا الاصطفاء بنو إسرائيل، يقولون: لا؛ {لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ} [آل عمران: 75] أي ليس علينا سبيل في أي معاملة معهم، ونستحلّ أموالهم، لكن

نحن –أي: بني إسرائيل– أبناء الله وأحباؤه، فخاطبهم الله عز وجل بتحدٍ، فالذي يدعي أنه قريب من الله يتمنى الموت، يتمنى لقاء الله {قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ} [الجمعة: 6] من غير العرب {فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [الجمعة: 6]

الإنسان كلما اقترب من الله وقويت علاقته بالآخرة اشتاق إلى هذه اللحظة، لحظة لقاء الله، وكلما ازداد تمسكًا بدنياه؛ كلما ازداد بغضًا لهذه اللحظة، لذلك عندما يأتي ملك الموت لينزع روح المؤمن، سماه الله عز وجل {وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا}[النازعات: 2] روح المؤمن تنشط وتخرج بسهولة، أما روح الفاسق والكافر والفاجر، التي تشعبت في شعاب الدنيا، وتشعبت في أجزاء الجسد، قال عنها ربنا {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}[النازعات: 1]الإغراق في النزع، لأنها متشعبة، تمسكت بالدنيا.

هؤلاء اليهود قال عنهم ربنا سبحانه وتعالى في آيةٍ فاصلة موضحة لكثير من أفعالهم في سورة البقرة، آية كاشفة لكثيرٍ من تمردهم {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا}[البقرة: 96] قال بعض أهل العلم: أي: أحرص الناس حتى من بعض المشركين {يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ}[البقرة: 96] هو متمسك بالدنيا، تغلغل الفكر المادي في بني إسرائيل، وهذا هو الموجود حاليًا، تغلغل الفكر المادي والبعد تمامًا عن أي نزعة روحية، وتكلمنا عن ذلك في آخر سورة الفتح، كيف أن اليهود كانوا في قسوة وغلظة وقمة المادية، فكانت صفات الصحابة في التوراة أنهم عبّاد، لأن اليهود ابتعدوا عن العبادة، ابتعدوا عن غذاء الروح، فاعتزلوا التفكير في هذه القضية، والنصارى كانوا مختلفين ومتنازعين؛ فجاء مَثل الصحابة في آخر سورة الفتح في الإنجيل بالتماسك والترابط.

{قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [الجمعة: 6,7]

{قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ} قضية الفرار من الموت هي ملخص للحضارة الغربية، فهم لا يفكرون إلا في الحياة، هو يريد الحياة في أعلى صورها البهيمية، في أعلى صور المادة والتمتع فقط، الحضارة لأجل الحضارة، لأجل التمتع، تمتع الحس تمتع البدن فقط، وهذا هو مفهوم الفرار من الموت {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ} [الجمعة: 8]

مهما تقدمتم لن تكتشفوا دواءً للموت (ما أَنزَلَ اللهُ مِن داءٍ إلّا أَنزَل له دواءً إلّا السّامَ) [9] إلا الموت! هذه الروح التي لم يُكتشف كنهها وحقيقتها مهما فعلوا، {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[الإسراء: 85] يعتقدون أنهم سيصلون لسر الروح، وأنهم سيستطيعون خلق روح مثلها، أو أن يردوا الروح في جثة ميتة، وهم {لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ} [الحج: 73]

{قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ}

إذًا الفرار من الموت وحب الدنيا والتمسك بها، هو الذي جعلهم لا يعملون بما تعلموا، الفرار من الموت والتمسك بالدنيا جعلهم لا يطبقون ما تعلموا، أهم أسباب البعد عن التطبيق: حب الدنيا، عندما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم :((أن الأمم سوف تتكالب على المسلمين) اعتقد الصحابة أن العامل الوحيد هو الكثرة والقلة، فقالوا: أومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: (بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله المهابة من قلوب أعدائكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن، قالوا: وما الوهن قال: حب الدنيا وكراهية الموت))[10]

هذا هو ما نتكلم عنه: الفرار من الموت! حب الدنيا وكراهية الموت يجعل الإنسان لا يطبق ما أمره الله عز وجل به.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد صلى الله عليه وسلم.

9- [عن أبي سعيد الخدري:] ما أَنزَلَ اللهُ مِن داءٍ - أو: ما خَلَقَ - مِن داءٍ إلّا أَنزَل له دواءً، عَلِمَه مَن عَلِمَه، وجَهِلَه مَن جَهِلَه، إلّا السّامَ. قيل: وما السّامُ؟ قال: الموتُ. العقيلي (٣٢٢ هـ)، الضعفاء الكبير ١٩١/٢ • روي نحوه بإسناد جيد
[عن أبي سعيد الخدري:] إنَّ اللهَ لَمْ يُنْزِلْ داءً أوْ لَمْ يَخْلُقْ داءً إلّا أنْزَلَ أوْ خلقَ لهُ دَواءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وجَهِلهُ مَنْ جَهِلهُ، إلّا السّامَ، قالوا: يا رسولَ اللهِ وما السّامُ؟ قال: المَوْتُ/ الألباني (١٤٢٠ هـ)، السلسلة الصحيحة ١٦٥٠ • صحيح بمجموع طرقه

10- [عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم:] يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن. فقال قائل: يا رسول اللهِ ! وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت / أبو داود (٢٧٥ هـ)، سنن أبي داود ٤٢٩٧ • سكت عنه [وقد قال في رسالته لأهل مكة كل ما سكت عنه فهو صالح]

كنا نتكلم عن قضية الفرار من الموت، وأن الله سبحانه وتعالى يقول {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ} مهما فعلتم {فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} عالِم الغيب الذي أنتم تدَّعون أنكم أبناؤه وأحباؤه، وتدعون أن قلوبكم مليئة بحبه، هذا الغيب يعلمه عز وجل، والشهادة: أفعالكم يعلمها الله عز وجل {ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [الجمعة: 8]

فينبئكم بماذا؟

(بما كنتم تعلمون) أم (بما كنتم تعملون)؟

{بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} قضية العمل، هم كانوا يعلمون، كان عندهم الأسفار، كانوا أحبارًا ورهبانًا، ولكن لم يطبقوا ذلك، بل إنهم كانوا أحيانًا أداة مع الظالم، يضعهم الظالم حيثما شاء، كانوا يأخذون المال رشوة، كانوا يأكلون المال الحرام ليُرضوا الناس {فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ} [البقرة: 79] .. كان يتكسب بهذه الوظيفة والعياذ بالله، فيقول ربنا سبحانه وتعالى {ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}

تكلمنا عن صيغة المضارع في التسبيح، عن وظيفة الرسول الأساسية، وبالتالي وظيفة الداعية، الذي يريد أن يسير على خطى النبي صلى الله عليه وسلم، لابد أن يتلو عليهم ما يأتيه، ويعلمهم الكتاب والحكمة، وتكلمنا عن فضل اللغة العربية، وتكلمنا عن اللحاق، وتكلمنا عن قضية الاستبدال، وأن الأمة التي تركت التطبيق تُستبدل، ثم يأتي الله عز وجل بآخرين يطبقون شرع الله عز وجل.

ثم في الختام –ختام عجيب– يقول الله عز وجل {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [الجمعة: 9-11]

قضية سورة الجمعة، ومشهد {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ}، التقاط مشهد نداء الجمعة بعد الكلام عن بني إسرائيل...

قد يقول البعض: الآيات هنا تتكلم عن يوم الجمعة وتركهم الصلاة، للحدث الذي حدث حينها من تركهم الجمعة، فما علاقتها بالسياق والكلام عن بني إسرائيل؟!

إن القرآن يلتقط هنا مشهد نداء الجمعة: {إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ}، ثم الألفاظ (فَاسْعَوْا / فَانتَشِرُوا) السعي ثم الانتشار بعد الصلاة {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا} لفظ الانفضاض.. هذه الألفاظ (السعي والانتشار والانفضاض)

أولًا: قضية الجمعة فيها أحاديث عجيبة في البخاري ومسلم، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (نحنُ الآخرونَ الأوَّلونَ يومَ القيامةِ)[11] يعني بالنسبة لبقية الأمم نحن جئنا متأخرين في الزمان، لكن سنكون الأوائل يوم القيامة، وضرب النبي صلى الله عليه وسلم أمثلة، أن الله هدانا لليوم الذي اختلف فيه أهل الكتاب من قبلنا، فرض الله عز وجل –وانتبهوا معي لهذه الجزئية– فرض الله عز وجل، أن يكون هناك يوم، فيه وقت للعبادة، ليس كل اليوم، وقت فقط خاص للعبادة، لا يُنازَع في هذا الوقت! فرض الله عز وجل أن يكون هناك يوم في الأسبوع، فيه وقت يبتعد الإنسان فيه عن البيع {وَذَرُوا الْبَيْعَ}.. لم يقل (وذروا التجارة) التجارة أعم، البيع هي أكثر لحظة ينتظرها التاجر.. لحظة المكسب! لحظة أن يقبض المال ويمسكه، فالبيع لحظات! فمطلوب ألا تلهيه هذه اللحظات، فالبيع أخص من التجارة، كما قال ربنا سبحانه وتعالى {رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ}ولا حتى {بَيْعٌ} [النور: 37]

قال تعالى {وَذَرُوا الْبَيْعَ}.. هناك فترة اشترط الله عز وجل وقضى أن تكون في يوم من الأيام، في جزء من اليوم يكون خاصًا بالعبادة.

بنو إسرائيل أيا كانت الأسباب والروايات، اختاروا السبت، رفضوا الجمعة، فلما اختاروا السبت وشددوا، شدد الله عليهم، وجُعل اليوم كاملًا للعبادة، وليس جزءًا من اليوم، بل اليوم كاملًا، والنصارى كانوا أكثر ضلالًا، فابتعدوا عن الجمعة، اليهود كانوا أكثر علمًا، والنصارى كانوا أكثر ضلالًا، ولذلك اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون، فالنصارى ابتعدوا وتوجهوا للأحد، وأيضًا اليوم كله كان عليهم العبادة فيه، لما رضي المسلمون بيوم الجمعة كانت هي ساعة فقط التي يُمنع فيها البيع، بعد هذه

11- [عن أبي هريرة:] نحنُ الآخرونَ الأوَّلونَ يومَ القيامةِ، نحنُ أوَّلُ النَّاسِ دخولًا الجنَّةَ، بَيدَ أنَّهم أُوتوا الكتابَ مِن قبلِنا وأُوتيناهُ مِن بعدِهم، فهدانا اللَّهُ لما اختلَفوا فيهِ منَ الحقِّ، فَهَذا اليَومُ الَّذي اختلَفوا فيهِ، النَّاسُ لَنا فيهِ تَبعٌ، غدًا لليهودِ وللنَّصارى بعدَ غدٍ
أحمد شاكر (١٣٧٧ هـ)، عمدة التفسير ٤٠٣/١ • [أشار في المقدمة إلى صحته] • أخرجه البخاري (٨٧٦)، ومسلم (٨٥٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٦٥٣) واللفظ له، وأحمد (٧٤٠١).

الساعة {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ} المسلم عنده تصور يمكن أن يجمع في اليوم الواحد – حتى يوم العبادة– بين الدين والدنيا، أما اليهودي والنصراني فلا يستطيع، إما يوم عبادة أو يوم دنيا! لا يعرف التداخل! أن يكون في وسط الحياة يتاجر ويبيع ويكسب، وفجأة يسمع الأذان فيتوقف ويسعى بقلب مشتاق إلى ذكر الله، ليستمع للذكر، ثم يعود بأخلاق هذا الذكر ليطبق ما تعلمه في حياته الدنيا، هذا التداخل لا يوجد إلا في الإسلام، وببساطة هذا هو عكس العلمانية، لذلك الأديان الأخرى سهل أن تُعَلْمَن، فتصبح فيها العلمانية، لأنهم أصلًا عندهم فصل بين الاثنين، لا يعرف مثلًا معنى أن يتوقف وسط اليوم... وسط المحاضرات... وسط العمل.. وسط التجارة... وسط الدراسة... يتوقف فيتوضأ ويتطهر، ثم يصلي ويقف بين يدي الله، ثم يسلم، ثم يعود، هذا التداخل لا يوجد إلا في الإسلام.

أحد الناس يحكي لي وهو من الذين يسافرون كثيرًا إلى ألمانيا وكل بلاد أوروبا عامة، وأمريكا، فيقول لي: تجد أن المطارات الكبيرة –يحكي عن مطار كبير في ألمانيا– تجد المطارات الكبيرة التي تستقبل من كل دول العالم، لابد أن تجد فيها دورًا للعبادة، فيها كنيسة، وفيها معبد، وفيها مسجد، الناس تدخل في أي وقت تتوضأ وتصلي، الذي يدخله الناس ويعمرونه في كل وقت هو المسجد.

حتى لو كان المسجد مغلقًا (جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وطَهُورًا)[12]، وهذا يجعل دين الإسلام دينًا عَصِيًا على العلمنة، صعب أن يُعَلْمَن، لأن فيه تداخلًا بين العبادة والحياة، بين الدين والدنيا، فيه ربط بين الاثنين.

حتى أن علي عزت بيجوفيتش كان يقول: بإمكاننا أن نشرح الإسلام كله من الوضوء والصلاة فقط، كيفية التعامل المادي مع الماء، واستقبال القبلة والأرض والروح، والتداخل هذا، ممكن نشرح الإسلام كله من خلاله، وكان يسميها الثنائية الموجودة في الصلاة،وأن هذا غير موجود إلا في الإسلام، صلاتنا ووضوءنا غير موجودين في أي دين آخر، كان يقول أن النصارى يقولون: الإسلام دين مادي، والماديون يقولون: الإسلام دين روحي فقط، ولكن الإسلام جمع بين الاثنين، لذلك ألّف كتاب (الإسلام بين الشرق والغرب) كل واحد ينظر إلى الإسلام بنظرة ، لأن الإسلام هو الدين الذي اكتمل.

وهذا هو ختام سورة الجمعة، أن هذا الدين ليس كاليهود، اليهود لما استعصى عليهم الجمع، تركوا كتبهم، ووضعوها على ظهورهم كالحمار، وانطلقوا في الدنيا يفرون من الموت، أما الإسلام جمع بين الإثنين،

---

[12]- [عن أبي أمامة الباهلي:] فُضِّلْتُ بأربَعٍ: جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وطَهُورًا، فأيُّما رجلٍ مِنْ أُمَّتِي أَتَى الصلاةَ فَلَمْ يَجِدْ ما يُصَلِّي عليه وَجَدَ الأرضَ مَسْجِدًا وطَهُورًا، وأُرْسِلْتُ إلى الناسِ كافَّةً ونُصِرْتُ بالرُّعْبِ مِنْ مسيرةِ شهْرينِ يسيرُ بينَ يَدَيَّ، وأُحِلَّتْ لِي الغنائمُ
السيوطي (٩١١ هـ)، الجامع الصغير ٥٨٦٤ • صحيح

الإسلام فيه إمكانية أن تجمع بين الاثنين، أن تكون في وسط علاقتك الدنيوية وانشغالك الدنيوي، تنفصل بمجرد أن تسمع الأذان، وهذا هو المقصود من (إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ.... فاسْعَوْا) [13] والسعي يكون بالقلب، القضية ليست بالأقدام، يسعى بالقلب؛ أنه كان في ظل انشغاله الدنيوي، كان مشتاقًا للسماع عن الله، مشتاقًا للسماع عن مراد الله في حياته، كيف أعيش في الدنيا بمراد الله؟ وما هو مراد الله في هذه التجارة؟ في هذه الأعمال؟ فيذهب ليستمع، وهذا هو الدور المفترض من خطبة الجمعة، المطلوب في خطبة الجمعة أن نسمع مراد الله، حُكم الإسلام في الملمات، أن يكون خطابًا واقعيًا للناس، يُعلِّم الناس، ولذلك كثير من أهل العلم قالوا: لو لم يكن هذا موجودًا في خطبة الجمعة فقد أُفسِد الغرض المراد منها.

ولنتفكر، ألم يكن من الممكن أن تكون خطبة الجمعة ويوم الجمعة عبادة فردية؟ بمعنى أن كل واحد لما يأتي عليه وقت الجمعة يقرأ صفحتين من المصحف، أو يصلي ركعتين مثلًا، فتكون عبادة فردية ثم نكمل حياتنا، ولكن لا... ليس هذا هو المقصود، بل يجب أن نجتمع في مكان واحد، فالله سبحانه وتعالى اختار أن يكون التجمع في المسجد، ويكون على علم، نسمع ذكر الله ونصلي مع بعضنا، ثم لما نجتمع على الذكر وعلى الصلاة، ماذا يحدث بعد ذلك؟ هو الانتشار، هناك نظام، كلمة {فَانتَشِرُوا} فيها نظام، أما كلمة {انفَضُّوا} فيها عشوائية! {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا} حالة الانفضاض، عكس الانتشار، لكن عندما نجتمع بطريقة صحيحة، سننتشر بطريقة صحيحة، كل واحد يذهب يقف على ثغره، ويمارس حياته، لأننا انطلقنا من منطلق واحد، استمعنا إلى العلم وصلينا {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ} وننسى بعدها ما سمعناه في خطبة الجمعة؟، كلا، بل بعدها {وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا} كل ما سمعته ينبغي أن تذكره، وتتفكر ما هو المطلوب مني أن أفعله، ولا أنسى ذكر الله أثناء عملي الدنيوي {رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ} [النور: 37] بالرغم أنه وسط التجارة والبيع، لكنه ليس مشغولًا عن الذكر {رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ} يمارس التجارة والبيع، ويذكر الله عز وجل، هذا التداخل لا يوجد إلا في الإسلام، وقد فشلت في تحقيقه اليهودية والنصرانية، فجاء الإسلام وهو الدين الخاتم الذي يجمع بين كل هذه الأشياء {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} لا تنسى ما سمعته في الخطبة،

[13]- [عن عبدالله بن عمر:] عن ابنِ عمرَ قال: [ما] سمعتُ عمرَ يقرؤها قطُّ إلا فامضوا إلى ذكرِ اللهِ [يعني قوله تعالى {يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ.... فاسْعَوْا إلى ذِكْرِ اللَّهِ} ابن الأثير (٦٠٦ هـ)، شرح مسند الشافعي ١٨٣/٢ • صحيح

لا تنسى ما سمعته في الصلاة، أنت استمعت لتطبق، وليس ليكون عندك حالة ازدواج في الشخصية! أن تستمع في المسجد للآيات والأحاديث وتصلي على النبي صلى الله عليه وسلم، وتنبهر وأنت تسمع عن الصحابة، وما شاء الله ولا قوة إلا بالله، وبمجرد خروجك، تنزع علامة الصلاة وتمارس حياتك الدنيوية كما تريد.. كلا!! {وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا} المفروض أن تطبق ما سمعته.. فلو أننا نجيء إلى الخطبة ونجتمع في المسجد ونستمع، ثم نخرج ولم نطبق، فهذا من أسباب الاستبدال، هذه أمة ستُستبدل، وأنت بذلك تساهم في عَلمنة هذا الدين وأنت لا تشعر، أن يحدث الانفصام بين الدين وبين أفعالنا في الدنيا، فأنت بذلك تساهم والعياذ بالله في الاستبدال!

والمؤلم في هذا المشهد أن تتخيل ما كان يدور في نفس النبي صلى الله عليه وسلم، وهو قائم على المنبر ثم {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا} بطريقة عشوائية، انصرفوا يجرون! {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا} كلمة {وَتَرَكُوكَ} هذه كلمة مؤلمة جدًا، تخيل! النبي صلى الله عليه وسلم بعد الأذى في مكة –صلاة الجمعة كانت في المدينة– فبعد الأذى الذي كان في مكة والتعذيب والبذل والتضحية وشِعب أبي طالب والهجرة، وترك الأوطان وترك المال، ويقف بعد كل هذا، ثم يجد جزءًا كبيرًا من الصحابة يترك المسجد أثناء وقوف النبي صلى الله عليه وسلم للخطبة وينطلق! جهد النبي صلى الله عليه وسلم التربوي كان صعبًا، كان طويلًا، كان شاقًا، تغيير النفوس شاق، القضية ليست عصا سحرية يتغير بها الناس، وليست المسألة بعض الأخلاق يؤمر بها الناس فيمتثلون! لا.. مطلقًا... بل الأمر معالجة وصراع ومنازعة!!

فتخيل شعور النبي صلى الله عليه وسلم وهو واقف، والصحابة ينفضون للتجارة واللهو، وهو مستمر في الوقوف، هذا معنى كلمة {قَائِمًا}، ظل صلى الله عليه وسلم قائمًا ليعودوا إليه، لا ينبغي للداعية أن ينفض، إذا انفض فإلى من يرجع الناس؟! هذا القائم لو انصرف؛ فإلى أي منارة سيرجعون مرة أخرى؟! فظل قائمًا صلى الله عليه وسلم، ولم يتأثر بانفضاضهم، وبقيت معه هذه الثلة؛ التي قال عنها النبي صلى الله عليه وسلم –فيما يروى أنه بقي معه اثنا عشر رجلًا أو أكثر أو أقل، على حسب الروايات– قال صلى الله عليه وسلم: (لو تتابعتم جميعًا)، لو الكل انفض (لسال عليهم الوادي نارًا)[14]

[14] [عن جابر بن عبدالله:] بَيْنا النَّبيُّ ﷺ يخطُبُ يومَ الجُمعةِ وقدِمَتْ عِيرٌ المدينةَ فابتدَرها أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ حتّى لم يَبْقَ معه ﷺ إلّا اثنا عشَرَ رجُلًا فقال رسولُ اللهِ ﷺ: (والَّذي نفسي بيدِه لو تتابَعْتُم حتّى لا يبقى منكم أحَدٌ لسال لكم الوادي نارًا) فنزَلَتْ هذه الآيةُ:{وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْها وَتَرَكُوكَ قائِمًا}[الجمعة: ١١] وقال: في الاثني عشَرَ الَّذينَ ثبَتوا مع رسولِ اللهِ ﷺ أبو بكرٍ وعُمَرُ / ابن حبان (٣٥٤ هـ)، صحيح ابن حبان ٦٨٧٧ • أخرجه في صحيحه

لو ذهب الكل ولم يبق أحد مع النبي صلى الله عليه وسلم، كانت النار ستتقد عليهم، فكأن من جلس كان أمانًا لمن ذهب، كأن من جلس ومن ضحى ومن بقي وترك الانفضاض كان أمانًا لمن ذهب، كان هو الأمن، كان هو النواة، التي يُرجَع إليها مرة أخرى، لابد من وجود هذه الثلة التي تضحي، كان الأمر فيه جدب وكان هناك غلاء وكان هناك احتياج لهذه التجارة، ولكن ضحى أُناسٌ وبقوا مع النبي صلى الله عليه وسلم، لابد من وجود هذه الثلة التي تضحي، لو انفضّ الجميع، إلى من سيعود الناس؟! فلابد من وجود هذه النواة.

نعم هناك مشكلة اقتصادية.. هناك صعوبة في العمل.. هناك غلاء في الأسعار.. هناك صعوبة في الجمع بين الدين والدنيا.. وصعوبة في التعلم.. لكن لا ينبغي أن ينفض الجميع! لا يصلح أنه كلما تمر تجارة أو لهو، ينفض الجميع، أين هذه الثلة التي تضحي بمستقبلها .. بدنياها.. ليعود إليها الناس، أين هذه الثلة؟! لو أن الجميع انفضوا، من يبقى ليحمل هم هذا الدين؟! الكل ينفض الآن، نعم الأمور صعبة وتزداد صعوبة، ليزداد الأجر لمن جلس مع النبي صلى الله عليه وسلم، ولذا يقول صلى الله عليه وسلم: لو ذهبوا جميعًا لسال عليهم الوادي نارًا.

الإنسان الذي يجلس، لابد أن يستحضر هذه المعاني، لا ينظر إلى التجارة وهو جالس، الذي يجلس في المجلس وعينه على التجارة سيقوم حتمًا، لكن ينبغي عليه أن ينظر لمن هو قائم، لابد أن يستحضر الجالس أنه في هذه النواة التي يعود إليها الناس بإذن الله عز وجل.

ولقد عادوا بفضلٍ من الله سبحانه وتعالى، لكن لأنه ظل قائمًا صلى الله عليه وسلم، لم يتأثر بهم صلى الله عليه وسلم، ظل قائمًا، وظلت معه هذه الثلة التي بقيت وضحت، فلم ينشغلوا بهذه التجارة ولا بهذا اللهو، فمن الناس من يصرفه اللهو وتصرفه أقل الأشياء عن المجلس، ومن الناس من ينصرف بسبب الضغط الاقتصادي، وفي السورة التي تليها {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا} [المنافقون: 7] يعلمون أن من أهم أسباب انفضاض الناس عن دين الله: الأزمات الاقتصادية، فيختلقونها حتى ينفض الناس عن دين الله، {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا} حالة الانفضاض عكس التجمع المطلوب، من السهل أن تدخل المجلس ومن السهل أن تجلس فيه، لكن من الصعب أن تترك كل هذه التجارات، وتترك كل هذا اللهو، لتظل جالسًا، من الصعب أن تغمض عينيك عن هذه التجارات وعن هذا اللهو وتظل منتصبًا ثابتًا لرؤية النبي صلى الله عليه وسلم وهو قائم، لا أتخيل حقيقةً

هذا الشعور لكلمة {وَتَرَكُوكَ}! النبي صلى الله عليه وسلم يُترك صلى الله عليه وسلم!! وفي مشهد أحد وهم يتركونه أيضًا، ولكن صبر صلى الله عليه وسلم وصابر وربّى هذه الثلة التي أصبحت منارة للعالم.

فقضية تربية هذا الجيل تحتاج إلى صبر ومنازعة للنفوس، وتربية لهذه النفوس، ضد كل هذه العوامل التي تحمل الناس على الانفضاض.

أهم العوامل التي تؤدي لانفضاض الناس –في الماضي وأيضًا في الزمن المعاصر– قضية الأزمة الاقتصادية {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ۚ قُلْ} قل لهؤلاء المنفضين: {مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ} لا تكثر الحديث معهم، الذي لا يوقن بهذه الحقيقة لن يقتنع ، من لم تكفه هذه الحقيقة ليس محتاجًا إلى أي كلام.. {قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ} قل للصنفين المنصرفين سواء للهو أو للتجارة {وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}.. هذا زاد الذين جلسوا مع النبي صلى الله عليه وسلم، هذا زاد هذه الثلة، هذا شعارهم، هذا يقينهم {وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} كل من ضحى وبذل لنصرة هذا الدين، بينه وبين الله أسرار، كل من ضحى وبذل لهذا الدين بينه وبين الله علاقة خاصة لا يعلمها كثيرٌ من الناس، يقينه في هذه الجملة {وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} هو رضيَ بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ صلى الله عليه وسلم نبيًا ورسولًا، هذا ما يرضيه، فهو يقول صباحًا ومساءً: (رضِيتُ بالله ربًّا و بالإسلام دينًا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيًا ورسولًا) [15] هو راضٍ بالصباح والمساء، يقول هذا الذكر، هو لا يرضى إلا بهذا، ثم ينافح عن هذه العقيدة {وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} هذه عقيدة الذين يجلسون ويستمرون في هذا المجلس، جلسوا ليتعلموا، ثم قاموا ليطبقوا ما تعلموا، هكذا يلحقون بالصحابة، قضية اللحاق.

أسأل الله عز وجل أن يجعلنا مع الذين يجلسون هذه الجلسة مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة، وأن نُري النبي صلى الله عليه وسلم من أنفسنا خيرًا، ونبذل لنصرة هذا الدين .

تكلمنا في هذه السورة بفضل الله عن:

- قضية التسبيح المستمر بصيغة المضارع ..
- عن وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم والذين يريدون أن يسيروا على خُطى النبي صلى الله عليه وسلم..

15- [عن أبي سعيد الخدري:] من قال رضِيتُ بالله ربًّا و بالإسلام دينًا و بمحمدٍ رسولًا وجبتْ له الجنةُ
الألباني (١٤٢٠ هـ)، السلسلة الصحيحة ٣٣٤ • إسناده جيد
[عن أبي سعيد الخدري:] مَنْ قال رَضيتُ باللهِ ربًّا، و بِالإسلامِ دِينًا، و بِمُحمَّدٍ نَبيًّا، وجَبَتْ لهُ الجنَّةُ
الألباني (١٤٢٠ هـ)، صحيح الجامع ٦٤٢٨ • صحيح

- تكلمنا عن استبدال بني إسرائيل..
- تكلمنا عن اللغة العربية..
- تكلمنا عن اللحاق..
- تكلمنا عن الانفضاض والانتشار، فارق كبير أن ننطلق من المسجد بعد ما اتفقنا على توزيع الثغور، وبين أن ننفض سريعًا، ينفض أحدهم إلى لهو، وأحدهم إلى تجارة، المشكلة أن الذي يقوم يترك ثغره فارغًا، فيحمل الجالس ثغره وثغر غيره، تخيل أنك ماكث في مكان، وتجد ثغرًا يفرغ بعد ثغر، من كان يحفظ القرآن ذهب، والذي كان يرد على الملحدين ذهب وترك ثغره، ومن كان يعلم الناس فقه ذهب، والذي كان يعلمهم العقيدة ذهب، ومن كان يدعو إلى الله ذهب وترك مهمته، والذي كان يوزع مطويات دعوية ذهب، ثم ماذا؟! ما الذي يحدث؟!

لكن هؤلاء الذين جلسوا، عقيدتهم: {وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}

أسأل الله عز وجل أن يستعملنا ولا يستبدلنا. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.